آفاق المعرفة



الحرية الفكرية بين الضرورة والممارسة

تامر سفر *

تعدّ مشكلة الحرية من أقدم المشكلات الفلسفية وأعقدها، إذ واجهت الباحثين والمفكرين من قديم الزمان، وما زالت مركز اهتمام مفكري وباحثي اليوم. لقد اكتسبت أهمية أساسية في كل المراحل التاريخية بحيث نستطيع أن نعدها مفتاح المشكلات الفلسفية جميعاً. إن مسألة الحرية اليوم هي بحق من أخطر المسائل التي يتعرض لدراستها العلماء والباحثون، حيث أصبحت من خلال التطور الإنساني عبر التاريخ شاملة للوجود الإنساني بأسره. إن مسألة الحرية مشكلة حيوية لا تكاد تنفصل عن الوجود الإنساني نفسه،

---

* أديب وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان رشيد شمة.



من حيث إنَّ الوجود الإنساني ما هو إلا وجود «حرية» تضع نفسها موضع التساؤل. «إن الحرية وحدها هي التي تستطيع أن تتساءل عن الحرية»[1] فالحرية ليست مجرد مشكلة نظرية يثيرها العقل الإنساني، بل هي مشكلة عملية متضمنة في صميم وجودنا، وهي -فيما أرى- عدوة الفوضى كما أنها عدوة الاستبداد والاستعباد، وضمن هذه الحدود أي «الحرية المنظمة» عمل الأنبياء والمصلحون ورجال الفكر والفلاسفة والعلماء والباحثون من أجل صرح الحضارة وتقدم البشرية وتحقيق الخير والسعادة للإنسانية.

- معنى الحرية وأبعادها:

إن لمفهوم الحرية استخداماً خاصاً في تاريخ الفكر الفلسفي، إذ تشير هذه الكلمة إلى الظروف الناشئة عن علاقة الإنسان بالإنسان، أو إلى الظروف الخاصة بالحياة الاجتماعية. ومن المعروف عندما يقيد معنى هذه الكلمة، تنشأ اختلافات بين المفكرين والباحثين في وجهات النظر بصدد استخدام مفهومها. في كل الأحوال تتضمن الكلمة معنى انعدام القسر، وهذا ما يؤكده في هذا المجال، المفهوم التقليدي الأوروبي من خلال المفهوم الليبرالي، والفردي الذي يشير إلى حالة تتميز بانعدام التقيد، أو القسر الذي يمكن أن يفرضه إنسان على إنسان آخر. فالإنسان حر بقدر ما يتمكن من اختيار أهدافه، ونهج سلوكه، دون أن يرغم على أي عمل لم يختره بنفسه. وهذا النوع من الحرية يدعى بالحرية الليبرالية. أما النوع الثاني، والذي يطلق عليه الحرية الماركسية، فيؤكد إضافة إلى انعدام القسر، الشرط الضروري لتعريف الحرية. فالحرية ليست مفهوماً مجرداً بل مفهوم ملموس كلياً مرتبط بإمكانية كل امرئ في تأمين وضعه المادي وإنشاء ظروف عادية للحياة. وكل إنسان يريد قبل كل شيء أن يملك مسكناً له وأن يأكل ويلبس جيداً، فإذا لم يتحرر من الجوع والفقر، وإذا لم يكن له سقف فوق رأسه، فإن جميع الحريات الأخرى تبقى بالنسبة له كلمات ظريفة لا أكثر، ولهذا لا يجوز النظر إلى الحرية من الزاوية السياسية أو الروحية فقط «فبدون حرية اقتصادية تبقى جميع الحريات الأخرى كلمات فارغة»[2]. «فلكل إنسان الحق في العمل وفي حرية اختيار العمل، وفي شروط عمل عادلة ومقبولة وفي الحماية من البطالة»[3]. ولكن التقدم هو قدرة الإنسان المتعاظمة التي يمارسها على الطبيعة، وعلى نفسه، وليس تقسيم العمل، غير الظفر الأول لهذه القدرة المتعاظمة، غير الخطوة الأولى الحاسمة في تحرير الإنسان من عبوديات الطبيعة بحسب وجهة النظر الماركسية. وأن أول تقدم تضمّن

تقسيم المجتمــع إلى طبقات. وتقسيم العمل هو شرط تمتّع الإنسان بالحرية، وإن تاريــخ الحرية ليختلط منذ البدء مع تاريــخ الاضطهــاد الطبقي، وهو تاريخ مرتبط بتاريــخ نضال الإنسان ضد الطبيعة، يقول أنجلز: «لا، لم يكن في المجتمعات القديمــة أناس أحرار، إلا أن هنــاك عبيداً. إن تقسيم العمل الذي هو شــرط لتمتع بعضــ الناس بالحرية، يؤدي إلى الانقسام الطبقي، أي إلى اضطهاد أعظم عدد من الناس، واستعبادهــم»[٤]. فالحرية بغير هذا المعنــى كلمة سحريــة مطاطة تخفي جميــع أشكال العبوديــة. فهي ليست وسيلة من وسائل التعبير، ولكنها وسيلة للحياة، ومن الواجب إنزال المناقشات الدائــرة حولها من سماء الأفــكار إلى أرض البشر، من خلال وجهة النظر الماركسية.

- **أهمية الحريّة الفكرية:**

لقد ظهرت الحرية الفكرية عبر التاريخ، كثمرة جهاد في سبيل الحرية الدينية الفكرية، باعتبــار أن الخيار ما بــين الأديان والخيار ما بين الإيمان وعدمــه، تبعه تلقائياً الخيار بالتفكير أو التعبير عن الرأي.

أما في المجتمعات الحديثة، وعلى الأخص الغربيــة منها، فــإن الحريــة الفكرية تشغل



المقام الأول في سلــم الحريات العامة، حيث إن طيــات دساتيرها قد أكدتهــا، وأحاطتها بهالة كبيرة من القدسية. بحيث لو استعرضنا كل دســاتــير أمم العالم لوجدناها تنص وتؤكد وتدعو إلى صيانة الحرية الفكرية، والمطالبة بهــا، والتي تعني إمكانيــة الفرد التعبير عن آرائــه أو تفكيره، حــول أية مشكلــة كانت، سياسية أو دينية، وذلك بالوسيلة التي تناسبه: بالحديــث، بالمطبوعــات، بالعرض، بوساطة وسائل الإعلام...الخ. ولكن كيف تمارس هذه الحرية بالنسبة للإنسان، وما هي حدودها؟

فذلك هو السؤال الأساسي الذي تختلف الإجابة عليه من أمة إلى أمة أخرى، ومن نظام إلى نظام آخر، وكذلك من فرد إلى فرد آخر ضمن الأسرة الإنسانية.

في الحقيقة، ليس من السهل السيطرة على الأذهان، مثلما يمكن السيطرة على الألسنة كما يقول سبينوزا(٥). لأن ذهن الإنسان لا يمكن أن يقع تحت سيطرة إنسان آخر، إذ لا يمكن أن يُحوّل أحد بإرادته أو رغماً عنه إلى أي إنسان حقه الطبيعي، أو قدرته على التفكير أو على الحكم الحر في كل شيء. وعلى ذلك فإن أية سلطة تدعي أنها تسيطر على الأذهان، إنما توصف بالعنف لأنه من المحال أن نمنع الناس من الاعتقاد، بأن آراءهم الخاصة أفضل من آراء الآخرين، وبأن اختلاف الأذهان لا يقل عن اختلاف الأذواق. فلو تأملنا الإنسان، كما يراه جبران خليل جبران، من حيث كونه إنساناً، مع الأخذ بعين الاعتبار مصدر هذا الإنسان وقلبه في الزمان والمكان، وفي الروح والمادة، وفي الموت والحياة، لخلصنا إلى نتيجة واحدة هي «إن كل ما في الوجود كائن في باطنك، وكل ما في باطنك موجود في الوجود، وليس هناك حدّ فاصل بين أقرب الأشياء وأقصاها، أو بين أعلاها وأخفضها، أو بين أصغرها وأعظمها، أما معرفة هذه الأمور كلها فلا تأتي إلا عن طريق التشوق إليها، وإن هذا التشوق ميسور للجميع، ففي مستطاع كل إنسان أن يتشوق، ثم يتشوق حتى جوهر الحياة المجرد»(٦). وهذا بطبيعة الحال لا يمكن أن يكون إلا من خلال معرفة النفس، وهذه المعرفة التي لا تتم إلا بالحرية، إذ الحرية تمثل جوهر الإنسان التي بموجبها يمكن أن يتعامل مع واقعها المحسوس.

إذاً الحرية هي الوسيلة العظمى في إسعاد الناس وتحقيق سعادتهم التي يناضلون باستمرار للانتقال بها من حالة إلى حالة أخرى أكثر رقياً وتطوراً. إذاً فحريتنا كما يقول لطفي السيد: «هي نحن، هي ذاتنا، هي معنى أن الإنسان إنسان، وما حريتنا إلا وجودنا، وما وجودنا إلا الحرية.. ليس من استطاعة أحد أن يسلب أحد حريته قبل أن يسلبه روحه. وليس للمرء أن ينزل عن حريته لغيره ما دام لا حق له أن ينزل عن حياته التي وهبها الله له، والتي لا يأخذها إلا هو»(٧). فالحرية شمس يجب أن تشرق على كل نفس، لأن من عاش محروماً كان في ظلمة حالكة، يتصل أولها بظلمة الرحم، وآخرها بظلمة القبر «فلا سبيل إلى السعادة في الحياة إلا إذا عاش الإنسان فيها حراً طليقاً، لا يسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر إلا أدب النفس.. فالحرية هي

حياة الإنسان، ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيء بحياة اللعب المتحركة في أيدي أطفال صناعية.. فالإنسان الذي يمد يده لطلب الحرية ليس بمتسول ولا مستجد، وإنما هو يطلب حقاً من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية، فإن ظفر بها فلا منّة لمخلوق عليه، ولا يد لأحد عنده»[8]. والدليل على وجود الحرية كما يقول المفكرون «هو شهادة الوجدان»[9]. وهذه شهادة واضحة كل الوضوح، فلا تسمى في الحقيقة دليلاً أو برهاناً، وإنما هي تجربة ومشاهدة، فما أن نتصور غاية ما حتى نقف التصور وما يحف به رغبات ونمنعها من التحقيق بما لها من قوة تحريك، ريثما نتأملها ونصدر حكماً، فإن الحالة الوجدانية التي لا تقمع تعقبها حركة تحقيقها، فتخرج من سلطان الإرادة، ويحدث هذا في حالات كثيرة، بعضها نتيجة اندفاع وقتي، وبعضها نتيجة مرض عصبي أو ضعف إرادي، والتأمل أو المشورة. بحث في قيمة ما يختلج في النفس من دواع، أي أسباب عقلية كالواجب والشرف، ومن بواعث أي انفعالات حسية كالمحبة والكراهية، والطمع والحسد وما إليها. فإذا ما تمت هذه الموازنة صدر الحكم الذي هو الاختيار.. وهذا الاختيار صرف من الناحية الوجدانية، بغض النظر عن الوجهة الأخلاقية، فإذا قدرنا قيمته من هذه الوجهة أحسسنا فضل العمل الصالح وتبعه العمل السيّئ. والذي يقمع الدواعي والبواعث في هذه المرحلة الأولى يدل على سلطان وإرادة، والذي يدخل في مشورة يعتقد ويشعر أن الأمر راجع إليه.. تلك شهادة الوجدان. وذلك تأويلها البديهي، تؤيدها الإنسانية جمعاء، حتى الفلاسفة والمفكرون المنكرون للحرية يعترفون بها عملياً، فإنهم في أفكارهم منقادون لأفكار مذهبية، منها الإلهية الكلية في الطبيعة وضرورتها لقيام علم، ولكن الناس دون استثناء يمدحون ويذمون، يثيبون ويعاقبون، يبذلون النصائح والوعد والوعيد، يسنّون القواعد والقوانين، وهم في كل هذا، يدلون دلالة واضحة على أن بني الإنسان أحرار.. وهذا دليل لشهادة الوجدان الإنساني الفردي، ومن خلال هذا المنطلق، تكون شهادة الوجدان التي هي المنطلق في حرية الفكر وحرية المشاعر على حد تعبير لطفي السيد، ليكون الإنسان في استخدامه لحريته الفكرية، ما دامت روحه في جسده «حر الإرادة، حر الاختيار، بين الفعل والترك، حر في أن يعيش أو يموت.. فالحرية الناقصة حياة ناقصة، وفقدان الحرية يعني الموت»[10]. وحرية الفكر «هي حرية البوح بالقول»[11]. على حد تعبير سلامة موسى «وحق الكلمة حق مطلق لا قيود عليه، ولا

منتهــى له»[١٢]. كما يقول خالد محمد خالد، والكلمة في رأيه هي الفكرة الصادرة عن رؤية واقتناع، تستهدف الخير، لا الأذى، والبناء لا الهــدم، وليس يعنينا بعد هذا أن تكون أقرب إلى الصــواب أو إلى الخطأ، ما دامت صادرة عن رؤية ذكيــة، وعن رغبة صادقة في إرساء الخير العام ومساندته والكلمة بهذا الاعتبار حق مطلق، ليس عليهــا سلطان غير سلطان نفسها. وإذا كنا نحقق مراحل التقدم بالمعرفة والإرادة، ونعانــق المستحيــل المعجز، ونحوله إلى ثمرة الكلمة النافعــة الهادية، سواء أكان بالكلمات التي استشهد في سبيلها أصحابها، أم بتلــك التي كتب لذويها السلامة والعافية، «ففــي البدء كانــت الكلمة.. وخــير جوانب التقدم الإنســاني وأتقاها، وأبقاها، هي تلك التــي قامــت ونمت بــين تيــارات أمينة من الحوار والمناقشة»[١٣]. والكلمة هي الفكرة في حالة الإفصاح، التــي تخضع لتوجيه الفكر. وحين نضع أبصارنا على أي عمل من أعمال الحياة نجد الفكر سيد هذا العمل ومنشئه.. والفكــر يخلق الأعمــال، ويرســم خططها ومناهجها.. «فالقانــون فكر، والفكر قانون، والقوانين العادلة الخيرة، ثمرة الفكر العادل الخير»[١٤]. إذاً، الفكر هو الذي يضع قيوده، ويرســم حدوده حين يحتاج إلى قيود وحدود، وهــو حين يختار هــذه القيــود والضوابط، يختارهــا ملائمة لطبيعتــه المنطلقة الحرة، وهــو أيضاً نبراس تقدمنــا المادي والروحي.

إذا مــا استعرضنا التاريــخ أو الحياة بعظيم مــن عظماء البشر ورواد الحيــاة، نجده ابناً شرعياً وباراً للكلمة الحرة، حتى عند الرسل والأنبيــاء، فنحن لا نكــوّن اقتناعنا وإيماننا إلا بالكلمة وحدهــا. إذاً فمن واجبنا احترام الكلمة، وتنميــة فرصها، فالذيــن يحاولون توجيــه الفكــر، وإخضــاع الكلمــة، والذين يقمعون الكلمة دفاعاً عن خير عام، ومصلحة عامــة، لا يدركون حقيقة الخــير والصلاح، لأن الخــير العام لا يجــد اكتماله إلا في ظل الحــوار والمناقشة ففي الكلمة الحرة النافعة تكمن أذكى ضرورات الحياة الإنسانية، والنفع الاجتماعي، والفرد والأمة والدولة لا يجدون ذواتهم وحقيقتهم إلا من خلال الكلمة الحرة والفكر الطليق، والناســ حينما يتكلمون قد تختلــف ألسنتهم وآراؤهــم، لأنهم لم يخلقوا في قالب واحد. ولكــن تبقى حاجة الوصول إلى الحقيقــة بحاجــة إلى آرائهم مجتمعين، وإلى رأي كل فــرد منهم وحده، لأنه لا يوجد شــيء يرفع مــن أقدار الناس مثــل قدرتهم على أن يقولوا، ومثــل إحساسهم لما يقولونه نفوذاً واعتبــاراً، وجوهر الثقة بالنفس يكمن في التعبــير الحرّ، والرأي الحــرّ، ولهذا كان إقــرار هــذه الكلمة دعماً لحــق الإنسان في

الطمأنينة والأمن ولقد صدق (مل) حينما قال: «إن شخصاً واحداً ذا عقيدة، يساوي تسعاً وتسعين من ذوي الهوى والغرض»[١٥]. وإننا نجد من ذوي الهوى والغرض من الذين لا رأي لهم ولا إيمان، بينما نجد ذوي العقائد الصادقة من الذين يتعبون في اختيار آرائهم وتمحيصها، ولا نجد أحدهم يعدل عن رأي إلى آخر إلا عن اقتناع جديد، فظروف الحياة على مستوى الإنسانية والأمم، لا تكون رشيدة وقويمة إلا بقدر ما تنشئ الوطن الكبير، والمواطنون الكبار والمواطن الكبير يبدأ وجوده في قدرته على التعبير الحرّ عن نفسه، وما يعتمل داخل فكره من رأي وقرار دون أن يحس من مجتمعه ولا من دولته إنه بهذا التعبير يشكل عبئاً ينبغي أن يدحض، أو خطراً يجب أن يقاوم، وحاجة الجماعة إلى حرية الكلمة وسيادة الفكر، لا تقل عن حاجة الفرد، بل تزيد، لأن حيوية المجتمع متمثلة في قدرته على مسايرة التقدم الإنساني، والتقدم الحقيقي يكون ثمرة نبوغ الجماهير[١٦]. وهكذا لابد من سلامة المصير الإنساني كله من الاتفاق على أن حرية الكلمة حق مطلق، ولابد من أن تفصح تشريعات الأمم وقوانينها عن هذا الإقناع، فأحاديث الأمم كما يقول محمد عبده: «تدور على محور أفكارها، إذ اللسان هو المترجم عما يختلج بالضمير من الصّور المحفوظة والمعاني المستحيلة، على اختلاف أشكالها، وتنوع فنونها، وتشعب مجادلاتها ومحاوراتها»[١٧]. وهذه بطبيعة الحال تشكل الأساس في تطور البشرية وتقدمها، وهي مستفيدة من كل فكرة على مستوى الفرد والأمة والإنسانية. والحرية الفكرية يجب أن تتميز بإبراز الحقيقة كما يقول قاسم أمين، فهي تحتاج إلى أن تكون منزهة عن الزيادة والنقصان، ولا يقبل أن يبدل فيها أو يغير منها أو يتنازل عن حرف مراعاة لأي أمر كان[١٨]. وهي تحتمل «إبداء كل رأي، ونشر كل مذهب، وترويج كل فكر»[١٩]. والحرية بهذا المعنى تحتاج إلى استقلالية الشخصية المتميزة باستقلالية الفكر، فلا يجوز مطلقاً أن ندّعي أننا عرفنا الحرية، وأننا نقدرها قدرها إلا إذا كنا نحترم استقلال الفكر على حسب رأي رشيد رضا: «فلا نعارض أحداً في إبداء رأيه وإظهار علمه باللسان أو القلم، ولا يمكن أن نخطو إلى الأمام بدون هذا»[٢٠]. إذاً، إبراز الحقيقة لا يمكن أن يكون إلا باستقلالية الفكر، والتي هي شرط ضروري للارتقاء من كل علم وكل عمل. والحقيقة يجب أن تبرز وأن تقال. فالتفكير كما يقول سلامة موسى: «لا يكون حراً طليقاً حتى تستطيع البوح والإفضاء به إلى غيرنا، لأن الفكرة طاقة، أي قوة من قوى الذهن،

ما تــزال منحبسة شأنها شــأن جميع القوى المحبوسة تعذب الذهن حتى تتصرف بالعمل، وكل منا يعرف أن في الإفضاء والبوح منفرجاً للصدور، وأن همومنا تخف إذا شاركنا غيرنا فيها، والخواطر العلميــة أو الفلسفية تؤذي صاحبهــا وتعذبــه إذا لم يجد لهــا منصرفاً بالبوح بهــا إلى الناس لأنهــا تبقى في نفسه كالسهــم الرابض لا يستريح منه حتى يفضي بها إلى الناس»[٢١]. إذاً حرية الفكر هي حرية القول كما يراها سلامة موسى. وحرية القول تتوقف عليهــا مسألة إبــراز الحقيقة، التي يتوقف عليها عنــوان ارتقاء الأمم كما يقول رشيد رضا، ويراد بحرية القول هنا «أن يقول الإنســان ما تدله عليه حريــة الفكر، أي أن يصرح بما يعتقده بــلا تدجيل أو مداجاة أو تمويه، فــلا يقول شيئاً وهــو يعتقد خلافه، فإذا نظــرت إلى الأمم الراقية رأيتها تقرب من الارتقاء بقــدر تعويلها على حرية القول، أي أن أكثرها حرية أرقاهــا منزلة، وأقواها شكيمة»[٢٢]. والمقصود بالقول هنا، أن يكون مساعداً وهادفــاً للوصول إلى الحقيقة التي يتوخاها الناس كمــا يرى شبلي شميل. فمن الواجب أن ينصرف الإنسان عن تنميق الكلام وبذلك «تتقوم طباعه، وتقل سخافاته، ويكثر جــده، ويقل رياؤه، وينشط من الذل، ويرتقي ارتقاءً حقيقيــاً»[٢٣]. وبهذا يحق له فعلاً أن يعدّ إنساناً.

والحرية الفكرية ترتبــط بعامل المعرفة والوعي، «فالإنســان في أكثر أعماله وأفكاره ليس ابن غرائــزه» كما يرى شبلي شميل «بل صنع تربيتنا مــن المهد إلى اللحد»[٢٤]. يقول أحد الحكماء: إن سمحتم لي بتحسين التربية ألزمت نفسي لكم بإصلاح أحوال العالم بأسره. فالحريــة بحاجــة إلى مربٍّ كما يــرى أديب إسحاق «ولا يتوهمن محب الحرية أن الحاجة إلى المربي والدليل منافية لما تقتضيه حريته، أو مشعرة ببقاء الاستبداد. فإن هذه الحاجة قد عرفت، وألفت في أظهر البلاد تمدناً، وما تزال مــن لوازم النماء والبقــاء في الاجتماع الإنساني مــا دام في الأرض علماء، وجهلاء، وحكماء، وسفهــاء، وخاصة، وعامة، وما دام الإنسان محــل خطأ ونسيان ولكن يشترط في المربي والدليل أن يكونا ممّن اجتمعت الكلمة عليهما، وحصلت الثقة بهما»[٢٥]. «فالإنسان يجــب أن لا يكون عبــداً ذليلاً لا يملك أدنى حرية في القول والفكر والعمل تجاه القضايا المألوفة من واقع، وعادات، وتقاليد»[٢٦]. على حد تعبير شبلي شميل. لأن الإنسان يجب أن لا يترك لغرائزه، فالتربيــة أساسية له، وهي السبيل إلى ارتقاء طريق العلم والمعرفة الأساس في بنــاء الحضــارة وتقدمهــا وازدهارهــا، فالضرورة الإنسانية تستدعي الالتفاف حول كعبة العلــم الصحيح، لأنها الوسيلة الوحيدة

لهـدم الجهل «فليتـوخ دعـاة الإصلاح هذه الغاية في معاهد التعليم، فذلك أدعى لاتساع المدارك»(٢٧). وبمـا أن حرية التعليم ضرورة إنسانية من أجل تمتـين وتوسيع الروابط ما بين مختلف أفـراد المجتمعات، وقد أصبحت بديهيـة من أجل التطور والحضارة، وهي في الوقـت نفسه مرتبطة وبشكل منطقي بحرية القـول أو التعبير، فإذا كانـت حرية التعبير تعنـي حرية الإنسان في نشـر آرائه وأفكاره، فمـن البدهي أن يستطيع تعليمها، وذلك إما عـن طريق حلقات خاصة كمـا فعل العلماء والكتاتيـب قديماً، وإما عـن طريق المدارس والمعاهـد المنظمـة كما يجـري حالياً. ومن تحليل فكـرة التعليم وحريتهـا اتضح بأنها تنطوي على ثلاثة حقوق أساسية هي: الحق بالتعليم والحق بالتعلم، والحق باختيار المعلم، فالإنسـان لا يكون إنسانـاً حقيقياً على حدّ رأي محمد عبده إلا بالتربية «وليست هي إلا عبارة عن اتباع الأصول التي جاء بها الأنبياء والمرسلون مـن الأحكام والحكـم والتعاليم، وهـي عبارة عـن السعادة الحقيقيـة، تعلم الإنسان الصدق، والأمانة ومحبة نفسه، فإذا تربى أحب نفسه لأجل أن يحب غيره، وأحب غيره من أجل أن يحب نفسه»(٢٨). باختصار، إذا تربى الإنسـان أحس في نفسه أنه سعيد، فمن كانت لديه موهبة علمية يجب أن يكون حـراً في التعبـير عنها أو نشرهـا وتعليمها، فالإنسان يظل حـراً، طالما استطاع أن يقدم للآخرين ما لديه من علم أو إيمان أو عقيدة. وحرية الإنسان في هذا المجال، تعني بأن ينهل من العلم ما يشاء، وأن يتثقف بالطريقة التي يشـاء، وأن لا يجد قسوة بممارسة هذا الحق إلا في إمكانياتـه العقلية والذهنية أو القدرة على الاستيعاب.

وفي الحقيقـة فـإن التربيـة ليست بنت يومهـا، أو وليدة حاضرهـا، وإنما هي نتاج اجتماعـي تاريخي، تمتد جـذوره بعيداً في أعماق الماضـي، ولها أصولها التاريخية التي تعـين على فهم القضايا. وقـد كان سقراط على حق عندمـا قرن «المعرفـة بالفضيلة، وأكد أن من يقتنع بشيء يتحمس لفعله ويدفع الآخرين إلى فعله بنفس الحماس»(٢٩). وأخيراً، لابد للحرية الفكرية من أن تأخذ أبعادها من خلال نشرها وإذاعتها بوسائل الإعلام كافة، من كتابة وخطابة وطباعـة وإذاعة وتصوير وأفـلام، فحرية الرأي، وحريـة التعبير عنه تستدعـي ذلك مـن أجـل أن تستفيد منها المجتمعـات الإنسانية قاطبـة. فمن الواجب أن لا تكـون احتكاراً لأحد، وأن لا تمنع قهراً واستبـداداً من قبل أحـد، وكما يقول جمال الدين الأفغاني: «متى رسخ في نفوس قوم، إنه لا خيـار لهم في قول، ولا عمل، ولا حركة ولا

سكــون. وإنما جميع ذلك بقوة جبارة، وقدرة كاســرة، فلا ريب ستتعطــل قواهم ويفقدون ثمرة مــا وهبهم الله من المدارك وتمحي من خواطرهم قدرة السعي والكسب. وأجدر بهم بعد ذلــك أن ينحلوا من عالم الوجود إلى عالم العــدم»[٣٠]. فالأمة التي تتخذ القوة القاهرة سلاحــاً في نقض المبــادئ المخالفة لمألوفها، بعيدة عن أسباب التقدم ووسائل التمدن على حدّ قــول شبلي شميل «حتى تقطع السلاسل وتمــزق الحجــب الحائلة بينهــا وبين حرية البحث التي تطلق للعقل عنان الفكر، فتزداد معرفة بالأسبــاب والحقائق وتشتغل بكل ما يعرضــ لهــا فتتمسك بما تؤيــده الشواهد، وهكذا يستخدم المــرء أفكاره لفهم الحوادث عوضــاً عــن أن يستخدم الحــوادث لتأييد أفكاره حرصاً عليها»[٣١].

ومهما يكن من أمر للحرية الفكرية، فإنها تبقى الأســاس والمنطق لكل تطــور بالنسبة للإنسانيــة، وإن كان لها الكثير من المخاطر، والتاريــخ أكبر شاهد على ذلــك، إذ يؤكد أن معظم الذين أباحوا بمــا في صدورهم، مما اعتقدوه حقيقة علميــة أو فلسفية أو أدبية، نالوا مــن الاضطهاد والعذاب والحبس حتى والقتل الشيء الكثير. وسبب ذلك أو علته، أن الناس مطبوعون على الكسل والاستنامة إلى ما ألفوه من العادات الفكرية والعملية، فمن السهل على الإنسان أن يجري على عادة أمسه، من أن يلجأ إلى التجديد، وإذا ما ابتدع إنسان فكرة جديــدة، أو نظرية جديدة، في مجالات الحياة المتعددة، فإنــه لابدّ من أن يصدم في أول وهلــة، لما يكلفه إبداعــه هذا من تفكير لدى الآخرين كانوا بغنى عنه، وربما المصلحة المعايشة والماليــة كثيراً ما تكون متعلقة بتلك العــادات المألوفة، وتبديلها يضيّع على بعض الطبقات مصالحها. فالغني يكره الاشتراكية لمصلحة واضحة -كمــا يرى سلامة موسى- ، والذين تعودوا علــى الاستغلال والرشوة لا يناسبهم تطبيق العدالة. وكذلك الذين عاشوا في ظل التعصــب لأفكارهم البالية القديمة، وغطوا في غياهــب الجهل، تؤذيهــم مسألة التطــور والأخــذ بمعطيات العلــم، والذين عاشوا في ظل القهر والخوف بسبب استبداد العادات والتقاليد والسلطة فإن خوفهم هذا يمنعهم من أن تطلق لذهنهم الحرية، ومع كل هــذا، لابدّ للإبداع من أن يفــوز في النهاية، لأن كل تقدّم مشروط بإبداع بني البشر، ولولا ذلك لما تم اختراع ولا اكتشاف ولما استطاعت الحضارة أن تصل بالإنسان إلى ما وصلت إليه الآن، وفي القــرن التاسع عشر الذي استقرت ورسخت فيــه الحرية الفكرية، والقرن الذي ولد في حجر الثورة الفرنسية، هو القرن الذي أعلن داروين في منتصفه للناس «إن الإنسان

لم يكن عالياً فسقــط، بل كان ساقطاً فتطور وارتفع»[٣٢]. وفي جميع الأحوال، الذي يهمنا الآن –ونحن نعالج موضوع الحرية الفكرية– إنساننا العربـي، لأن تحريره شرط جوهري مـن أجل تحقيـق طموحاتـه وأهدافه نحو التطور والحضارة، والتـي يكمن فيها شرط تحرره الاقتصـادي والاجتماعي والسياسي، ونحـن إذا عالجنا موضـوع الحرية الفكرية عند مفكرينـا العرب في العصـر الحديث، فإننا نؤكد أننا لا ننطلق في هذه المعالجة من السديم والمتاهة، بل ننطلق من تاريخ إنساننا العربي الفكري، من تراثه الممارس والمكتوب، كي نستعيـد معه حاضره المحاصـر وهويته المهدورة، نستعيد تراث العربي في الحرية كي نضيف إليه، ونمارسه في ظرفه الراهن، بعد أن نكـون قد استفدنا من معطيات الإنسانية ضمن هذا الإطار، ففكرنا العربي، كأي فكر في الدنيـا، لابدّ له من أن يتأثـر بغيره، وأن يأخذ من هــذا الغير كما يعطيه، وهذه –بلا شك– ضرورة لتطور البشرية وازدهار الحركة الفكرية فيها.

الهوامش والمراجع

١- إبراهيـم، زكريـا: مشكلـة الحريـة، دار مصـر للطباعة، دون تاريخ، ص١٢.

٢- روزنتـال: العالم الحرّ، أين هـو؟ توزيع مكتبة الزهراء،دمشق، سورية، دون تاريخ، ص٥.

٣- المرجـع السابـق: صـ٦، وهذا مـا نصت عليه شرعـة حقـوق الإنسـان التـي أقرتهـا الأمم المتحدة في عام ١٩٤٨.

٤- غـارودي، روجيـه: أصـول الحريـة، تعريـب د.بـدر الدين السباعي، دار الجماهير، دار ابن الوليد، دمشق، ط٢، ١٩٧٣، ص٢٦.

٥- سبينوزا: رسالـة في اللاهوت، ترجمة وتقديم د. حسـن حنفي، مراجعة: فؤاد زكريا، الهيئة المصريـة العامـة للتأليـف والنشـر، ١٩٧١، ص٤٤٥.

٦- جـبران، جبران خليـل: الأعمـال الكاملة، دار صادر، بـيروت، من المقدمـة لميخائيل نعيمة، ص٢٩.

٧- السيد، أحمـد لطفي: المنتخبات، جـ١ مكتبة الأنجلو المصريـة، بإشـراف إسماعيل مظهر، صـ٢٩٦-٢٨٩، وردت كمقالـة في كتاب حصاد الفكـر العربـي الحديـث، في قضيـة الحرية، مؤسسـة ناصـر للثقافة، بـيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٠،ص٢٩.

٨- المنفلوطـي: مصطفى لطفي: النظرات، جـ١ مكتبـة الهـلال، مصـر، ط٤، ١٩٢٣،صـ١٨٣-١٨٨.

٩- كـرم، يوسف: الطبيعة ومـا بعد الطبيعة، دار المعارف بمصر، دون تاريخ، ص١٠٥.

١٠-صـروف، فـؤاد: الفكـر العربـي في مئـة عام، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٦٧،ص١٢٨.

١١-موسى، سلامة: حرية الفكر وأبطالها في التاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٦١،ص١٥.
١٢-خالد، خالد محمد: في البدء كانت الكلمة، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٦١، ص٥٣، ١١٧.
١٣-المرجع السابق: ص١١٧-١١٨.
١٤-المرجع نفسه: ص٥٤.
١٥-المرجع نفسه: ص١٥٦.
١٦-بركات، سليم ناصر: مفهوم الحرية في الفكر العربي الحديث، مطابع مؤسسة الوحدة، دمشق، ١٩٨٢،ص٧٦.
١٧-عبده، محمد: الأعمال الكاملة، جـ٢، حقق وقدم لها د.محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٤، ص٤٤.
١٨-أمين، قاسم: الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق د.محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٧٦،ص١٥٦.
١٩-المرجع السابق: ص١٥٣.
٢٠-رضا، رشيد: مختارات في مجلة المنار، تقديم ودراسة: وجيه كوثراني، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨٠،ص١٨٦.
٢١-موسى، سلامة: مرجع سابق، ص١٣ ص١٧.
٢٢-رضا، رشيد: مرجع سابق، ص١٨٨.
٢٣-شميّل، شبلي: المجموعة، جزءان، مطبعة المقتطف، مصر، القاهرة، ١٩١٠، ص١،جـ١.
٢٤-المرجع السابق: ص٢.
٢٥-اسحق، أديب: الكتابات السياسية والاجتماعية، جمعها وقدم لها: ناجي علوش، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط١، آذار ١٩٧٨، ص٦١-٦٢.
٢٦-شميل، شبلي: مجموعة شميل جـ١،ص٦.
٢٧-المرجع نفسه: جـ٢، ص٢٨٦.
٢٨-عبده، محمد: الأعمال الكاملة، جـ٣،ص١٥٦.
٢٩-الجيار، د.سيد إبراهيم: دراسات في تاريخ الفكر التربوي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٧٤،ص٩.
٣٠-الأفغاني، جمال الدين: الأعمال الكاملة، دراسة الدكتور محمد عمارة، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ص١٨٣-١٨٤.
٣١-شميل، شبلي: مجموعة شميل، جـ٢، ص٤.
٣٢-موسى سلامة: مرجع سابق، ص٢١٠.

